ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

جوانب من التراث الأثري بواحات الجنوب الشرقي للمغرب
واحات غريس وفركلة نموذجًا

د. محمد المرتضي
أستاذ باحث في التاريخ الوسيط
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين
جهة فاس – مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّص

يهدف المقال إلى الإسهام في دراسة جزء من التراث الواحي "المهمش" ، بحكم بعده عن مدن تاريخية شهدت حضارة عمرانية في فترة زمنية معينة، وذلك قصد صيانته وإنقاذه. والأمر يتعلق هنا بجوانب من التراث الأثري بواحات "غريس وفركلة" التي تقع بالجنوب الشرقي للمغرب، بين درعة وسجلماسة، وتكمن أهمية التراث المذكور فيما يتيح للباحثين من فرص لتعويض النقص الحاصل على مستوى الوثائق المحلية وتجاوز ما يشوب المصادر من هيمنة الطابع الانتقائي عليها، حيث اهتم أغلبها بمناطق معينة مثل سجلماسة، بينما أغفلت حوض غريس، واكتفت بالإشارة إلى أسماء بعض الأماكن من قبيل "تاذنقوست" و"امرغاد" دون تقديم معلومات دقيقة عنها. وفي هذه الورقة البحثية سنركز على أربعة معالم تراثية أثري؛ أولها: النقوش الصخرية التي خلفتها الشعوب القديمة لتنقل جانبا من نمط حياتها وعاداتها ومعتقداتها وعالم الحيوان الذي كان يحيط بها، وثانيها: مغارة "تدارت ن رومي" الواقعة في الحافة الجنوبية لجبل غريس، ومن المحتمل أنها تؤرخ لمرحلة من مراحل الاستيطان البشري بالمنطقة، وثالثها: المدافن الجنائزية المعروفة بالكراكير، وهي تؤكد استيطان الإنسان بهذا المجال الواحي، منذ الفترة الممهدة للتاريخ، وآخرها: بقايا "قلعة برطقيز" الواقعة شمال غرب جبل غريس على الضفة اليسرى للوادي، والراجح أنها سميت كذلك لأنها بناية قديمة وغير مؤرخة بدقة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٨ فبراير ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ١٦ مايو ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

التراث الأثري؛ واحات غريس وفركلة؛ سجلماسة؛ المغرب؛ النقوش الصخرية؛ قلعة برطقيز

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057056

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد المرتضي. **"جوانب من التراث الأثري بواحات الجنوب الشرقي للمغرب: واحات غريس وفركلة نموذجا"**.- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص١٩٧ – ٢٠٤.

مُقَدِّمَةُ

يرى ابن خلدون في موضوع التاريخ وحقيقته أنه «خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال»[١]، والعمران في نظره هو التساكن والتعاون على المعاش، ومنه «ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الِحلل المُنتجعة في القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن»[٢]. وتُعتبر سجلماسة من المدن المندرسة التي ورد ذكرها في المصادر الإخبارية والجغرافية، ولأهميتها التاريخية والحضارية، حظيت باهتمام عدد من الباحثين أمثال حسن حافظي علوي، صاحب "سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي"، ولحسن تاوشيخت

في أطروحته حول "عمران سجلماسة: دراسة تاريخية وأثرية"، وفي المقابل لم تلق مناطق "العمران البدوي" الاهتمام نفسه من لدن الباحثين، ويرجع ذلك، فيما نرى، إلى قلة الإشارات المصدرية المتعلقة بها.

والحقيقة أن واحات "غريس وفركلة" يصعب فصل تاريخها عن سجلماسة وإقليمها. ويبدو أنها كانت مأهولة بالسكان منذ الفترة الممهدة للتاريخ على الأقل، حيث يوجد عدد من المواقع الأثرية، تتخذ شكل تحصينات، ونقوش صخرية، ومقابر جنائزية.

وإذا كانت بعض الأبحاث قد حاولت دراسة مجتمعها القبلي بعد اندراس سجلماسة أوخر القرن (٨هـ/ ١٤م)، مثل؛ أطروحة اخروش مولاي الحسن التي غطت من القرن (٨هـ/ ١٤م) إلى القرن (١٣هـ/ ١٩م)، و دراسة قسطاني بن محمد الموسومة بـ "الواحات المغربية قبل الاستعمار: غريس نموذجا"، فإننا لم نعثر – فيما اطلعنا عليه - على دراسة مستقلة عن تاريخها وتراثها. وذلك، بالرغم من أنها تعتبر صلة وصل بين الشمال الإفريقي وإفريقيا جنوب الصحراء، وشكلت ممرا للقوافل التجارية نحو سجلماسة.

وتأتي أهمية هذه الدراسة من خلال الإشكالية التي تنطلق منها؛ ذلك بأن واحات "غريس وفركلة" تقع بين منطقتين تاريخيتين - درعة وتافيلالت - وموقعها الجغرافي يقتضي الاهتمام بتراثها دراسة وصيانة وإنقاذا، إلا أن الواقع غير ذلك. فهل واحات غريس وفركلة تفتقر إلى "التراث" الذي يستحق الدراسة، بحكم بعدها عن سجلماسة ومهد الدولة السعدية؟ أم إن المنطقة تزخر بمعالم تراثية عمرانية وأثرية تنتظر نفض الغبار عنها، والتعريف بها؟

وبناءً على ما سبق، فهذا المقال يهدف إلى الإسهام في التعريف بجوانب من التراث الأثري بواحات "غريس وفركلة" الذي لم يلق حظه من اهتمام الباحثين والمهتمين دراسة وصيانة وإنقاذا؛ ذلك بأن المجال موضوعه لم يشمله المسح الأثري الذي قام به الباحثان "كاموس" (CAMUS) و"ماركات" (MARGAT) سنة ١٩٥٧م في موقع البوية[٣] بين أرفود والجرف، ولم تشمله أيضًا التحريات الأثرية التي أنجزها الباحث يوسف بوكبوط خلال ثمانينيات القرن العشرين في منطقة تافيلالت[٤].

وسعيًا وراء محاولة الإسهام في دراسة التراث الأثري المعرض للنهب والسرقة بهذا المجال الواحي، قصد صيانته وإنقاذه، حرصنا على تحديد موقعه، وبعض دلالات تسمية المنطقة التي ينتمي إليها، ثم انتقلنا إلى الحديث عن جوانب من التراث الأثري بواحات "غريس وفركلة"، والمتمثلة في النقوش الصخرية بتوغاش (جنوب شرق فركلة)، وكراكير غريس وفركلة، ومغارة جبل غريس (تدارت ن رومي)، وبقايا قلعة غريس (قلعة برطقيز) اعتمادا على الإشارات الواردة في المصادر المتاحة، والزيارات الميدانية التي قمنا بها.

أولاً: واحات غريس وفركلة: الموقع ودلالات التسمية

١/١- الموقع الجغرافي:

تقع واحات غريس وفركلة في الجنوب الشرقي للمغرب، ضمن مجال حوض غريس الأوسط الذي تحدُّه جبال الأطلس الكبير شمالا، وجبال "صاغرو" و"أوكنات" جنوبًا. ومن الناحية الشرقية حوض زيز الأوسط، وينتهي عند واحة تودغى غربا. ومن حيث الإحداثيات الجغرافية، تقع واحات غريس وفركلة بين خطي عرض ٣١ درجة و٣٢ درجة شمالا، وبين خطي طول ٤ درجات و٣٠دقيقة و٥ درجات و٣٠ دقيقة غربًا[٥]. وانطلاقًا من هذا التحديد؛ يمكن القول إن المنطقة تشكل الحلقة الوسطى في سلسلة الواحات الصحراوية التي تمتد في الجنوب الشرقي المغربي على شكل شريط كبير من واحات فكيك شرقًا إلى واحات درعة غربًا. وبذلك فهي تضم اليوم، إضافة إلى كلميمة وتنجداد، التجمعات السكانية تلوين، وتيزكاغين، وتوروگ وأم ڤلعب...

٢/١- دلالات التسمية:

ذكر صاحب "لسان العرب" أنه «يُقال للنخلة أول ما تنبُت: غريسة.. والجمع غرائس وغراس، والأخيرة نادرة. والغراسة فسيل النخل»[٦]، وورد هذا المعنى أيضًا في "القاموس المحيط"، لكنه أضاف ما نصه: «والغريس: النَّعجَة، وتُدعى للحلب غريس غريس...»[٧]، ولم يخرج معجم "الرائد" عن المعاني السابقة[٨].

وبالرجوع إلى المصادر الوسيطية، وخاصة الموحدية منها، نجد أن البيذق - أبو بكر بن علي الصنهاجي، وهو من أهل القرن (٦هـ/ ١٢م) - أورد اسم "غريس" في سياق حديثه عن خروج المهدي بن تومرت من تنمل نحو سجلماسة[٩]، وذكر محقق الكتاب – عبد الوهاب بن منصور- أن «غريس اسم أرض وجبل ونهر شهير بإقليم قصر السوق، قاعدته كلميمة

الواقعة على الطريق الذي يربط مدينة قصر السوق بمدينة ورزازات، ويسكن هذه الأرض عدد من القبائل، أكبرها مرغاد، وغريس، والعرب»[١٠]. ومن ثم، فلفظ "غريس" الذي يُطلق على الوادي، والحوض المائي (في مقابل حوض زيز)، والجبل الذي يُطلُّ على أهم واحة بالمنطقة من جهة الشرق، يحمل معاني ودلالات تنسجم مع خصوصيات المجال.

واستنادًا إلى ما ورد في "معلمة المغرب"، ففركلة من الأودية الصحراوية بالجنوب الشرقي للمغرب، وهو أحد روافد نهر غريس، ينبع من الكتلة الجبلية الواقعة بين تاديغوست شرقا وأغبالو ن كردوس[١١] غربا، ويلتقي مع وادي تودغى عند الأطراف الغربية لواحة أسرير التي تُشكل بداية الواحات المنسوبة للوادي الذي يسقيها. «ولعل ما اشتهر من فركلة بالذات هي واحاته التي لعبت أدوارا مهمة في تاريخ الجنوب الشرقي المغربي، باعتبار موقعها الاستراتيجي على محور تافيلالت مراكش ودرعة»[١٢].

وعليه، فالمعاني السابقة تُحيل على المجال الصحراوي والشبه صحراوي والجبلي في آن واحد، حيث ممارسة الزراعة وغراسة النخيل ورعي الأغنام إلى جانب التجارة الصحراوية التي ساعدت على استقرار السكان بالمنطقة منذ فترات ازدهار سجلماسة. ولعل ما يؤكد هذا هو بقايا التراث الأثري التي توجد بهذه الواحات.

ثانيًا: جوانب من التراث الأثري بواحات غريس وفركلة

١/٢- النقوش الصخرية بتوغاش جنوب شرق فركلة:

تعتبر النقوش الصخرية وسيلة للتعبير، تعتمد على مساحة صخرية لتسجيل رسالة أو صورة أو رمز[١٣]، وهي وثائق تاريخية ذات قيمة لا تقدر بثمن، خلفتها الشعوب القديمة لتنقل جانبا من نمط حياتها وعاداتها ومعتقداتها وعالم الحيوان الذي كان يحيط بها. ومن أجل انجاز أعمالهم المنقوشة، فضل الفنانون القدامى صخورا سهلة الاستعمال مثل الحجر الرملي الذي يعود للزمن الجيولوجي الأول، وفي حالات نادرة استعملوا بعض الصخور الجيرية، «وحسب الضربات التي قد تكون أكثر أو أقل تنسيقًا، أو الحفر الذي قد يكون أكثر أو أقل عمقا، فإن النقش قد يظهر أكثر دقة وجودة»[١٤].

وإذا كانت النقوش الصخرية الموجودة بمنطقة الطاوز بإقليم الرشيدية تعود إلى ما بين ٢٠٠٠ و ١٢٠٠ قبل الميلاد أي ٤٠٠٠ سنة من الآن[١٥]، فمنطقة توغاش جنوب شرق تنجداد (فركلة العُليا) تزخر هي الأخرى بمجموعة من النقوش الصخرية التي تعود للعهود ما قبل التاريخية.

نماذج لنقوش صخرية بتوغاش
جنوب شرق تنجداد (فركلة)

يتضح من خلال هذه الصور أن مسار النقش نقره واسع وغير عميق، ورأس الحيوان الممثل على اليمين ممتد نحو الأمام، والقرون الكبيرة ملتوية، والجسم مندفع إلى الأمام قليلا، وهي تفاصيل توحي بصورة ظبي. أما الصورة التي توجد في الوسط، فهي تشبه حيوان من فصيلة البقريات ذات القرون المتجهة إلى الأمام وكذلك الصورة الموجودة يسارًا.

والجدير بالذكر أن العديد من النقوش الصخرية بتوغاش - تنجداد لم تحظ بنصيبها من الاهتمام والبحث المعمق، وهي تتعرض لعوامل التلف المختلفة؛ سواء بفعل العوامل المناخية كالرياح المحملة بالرمال والفروق الحرارية الكبيرة، أو بسبب عوامل بشرية تتمثل إما في الجهل بالرسالة التي تحملها تلك النقوش الصخرية أو جشع التجار وجامعي التحف. لذلك وجب توفير شروط الحماية لها قبل فوات الأوان.

٢/٢- مغارة جبل غريس (تدارت ن رومي):

تقع هذه المغارة في الحافة الجنوبية لجبل غريس، ويمكن الوصول إليها عبر جرف ضيق لمسافة سبعة أمتار صعودا، يبلغ طولها ١٦,١ مترًا وعرضها ٤,٢٠ مترًا وعلوها ما بين مترين ومترين ونصف، ويبدو أن محتوياتها تعرضت للنهب.

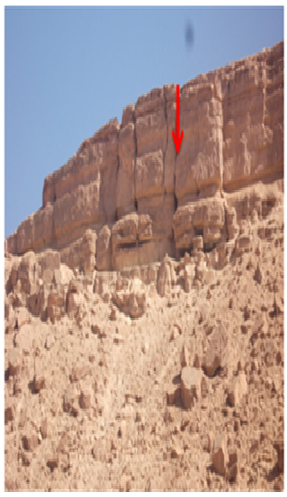

مغارة "تدارت ن رومي" بجبل غريس
شمال شرق مدينة كلميمة

يرى بعض الباحثين أن الرومان تمكنوا من الوصول إلى ما وراء جبال الأطلس بقيادة الجنرال "باولونيوس سويتونيوس" (Paulinus Suetonius) سنة ٤٢ ميلادية، لإيقاف ثورات السكان الرحل بالجنوب الشرقي المغربي[١٦]، ويرى آخرون أن الإشارات الجغرافية المرتبطة بالعمليات الرومانية، والخاصة بالجنوب الشرقي المغربي ظلت غامضة «ومن الراجح أن هذه المنطقة لم تخضع للسلطة الرومانية المباشرة وظلت بعيدة إلى حد ما عن أي تأثير حضاري. كما أن المصادر المكتوبة والأبحاث الأثرية لم تقدم لحد الآن أية دلائل واضحة يمكن الاعتماد عليها للبرهنة على وجود أي نوع من العلاقة بين سجلماسة والحضارة الرومانية»[١٧]، لذلك من الصعوبة تقبّل فكرة وصول الرومان إلى غريس أو فركلة، لمجرد وجود أسماء وإشارات جغرافية، من قبيل "تدرات ن ورومي".

وفي المقابل لا يُستبعد أن يكون الاحتلال الروماني لموريتانيا الطنجية قد أدى إلى هجرة القبائل الأمازيغية للاستقرار بمناطق جبال الأطلس، والواحات الشبه صحراوية، ومنها طبعا واحات غريس وفركلة، خصوصا وأن الحملة العسكرية التي قادها "باولونيوس سويتونيوس" «لم تشمل الجهات الممتدة في أقصى جنوب وادي كير، بل اقتصرت على الأطلس الكبير الشرقي والنواحي المجاورة له»[١٨].

ومهما يكن الأمر؛ فربّما كانت المنطقة قبل تأسيس سجلماسة «قد مضت عليها قرون وهي تتجر مع القرطاجيين، ثم مع تجار إفريقيا الشمالية الرومانية»[١٩] على حدّ تعبير دانييل ماك كوك، وربمّا عرفت واحات غريس وفركلة خلال فترات ما قبل الفتح الإسلامي تطورات حضارية معينة مثل باقي واحات الجنوب الشرقي المغربي، إلا أن هذه التطورات لا تُعرف بدقة. لأن المصادر القديمة، وخاصة الإغريقية-الرومانية تُعتبر مصادر أجنبية ومعظم مؤلفيها لم تكن لهم معرفة مباشرة بها، «ولا نتوفر على مصادر محلية تُثبت من خلالها أو ندحض المظاهر والظواهر الموصوفة [وهي أيضًا] تنقل إلينا شذرات أو فقرات من مؤلفات أو تقارير رحلات ضاعت والتقارير ليست بالضرورة إغريقية أو رومانية»[٢٠].

وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما ذكره "شارل أندري جوليان" حول سكنى الكهوف التي لم تضمحل مع اضمحلال عصور ما قبل التاريخ، بل بقيت في بعض المناطق إلى أيامنا هذه، وأن الأفارقة تركوا الكهوف الطبيعية المستعملة في عصور ما قبل التاريخ «وحفروا في الصخور قبورا مربعة مدخلها عمودي شبيهة بالمساكن، وتُسمى الحوانيت، محدودة المساحة عادة، وفيها يضعون موتاهم»[٢١]، فوجود آثار تدل على تدخل الإنسان في مغارة "تدارت ن رومي"، معناه أن الأمر لا يتعلق بمغارة طبيعية، بل بمرحلة من مراحل الاستيطان البشري التي بمنطقة غريس، وبالتالي يمكن أن نتساءل عن طبيعة العلاقة بين المغارة المنحوتة في جرف الجبل، جنوب "قلعة برطقيز" – سنتحدث عنها لاحقا- والقبور القديمة التي تقع شمالها؛ هل هي مرحلة تسبقها، أم لاحقة لها؟

٣/٢- كراكير غريس وفركلة:

من المؤشرات التي تؤكد استيطان الإنسان بهذا المجال الواحي، منذ الفترة الممهدة للتاريخ، وجود بنايات قديمة ومدافن جنائزية تُسمى "الكراكير" (tumulus)، وهي مفرد "أكركور"، ومعناه ركمة من تراب أو بناء حجري بشكل مخروطي فوق قبر[٢٢]، وبما أنها تشبه الركام من الحجارة فالسكان المحليون يطلقون عليها محليا "إكرار"، جمع "أكرور". ومن خلال الزيارات الميدانية، يتبين أن الكراكير بغريس وفركلة توجد على بُعد عشر كلمترات من مدينة كلميمة شمالاً وشرقًا (تجاه مدينة الرشيدية)، وجنوب شرق مدينة تنجداد، ويتميز بعضها بباب صغير، غالبًا ما يكون موجها نحو الشرق.

أكركور بغريس- قرب كلميمة (اليمين) وأكركور بتوغاش جنوب شرق تنجداد (اليسار)

والجدير بالذكر أن عملية دفن الإنسان خلال عصر ما قبل التاريخ- حسب الباحث مصطفى أعشي- كانت تتم في حفر صغيرة، ولمّا لاحظ الإنسان أن الوحوش كثيراً ما تنبش تلك الحفر، وتفترس جثة الميت، عمق حفرة الدفن في الأرض، وعمد إلى تغطية أعلى القبر بكتل حجرية كبيرة للحيلولة دون تعرضها للنبش. ومع توالي الزمن وتطور الطقوس الجنائزية، أخذ الإنسان يُقيم المقابر المتنوعة الأشكال والأحجام[٢٣].

ويبدو أنّ القبائل الأمازيغية هجرت الدفن داخل الكهوف، منذ بداية العصر الحجري الحديث، واستقرّت حول العيون والآبار في الواحات وعلى ضفاف الأنهار[٢٤]، ومارست الزراعة[٢٥]، وفضلت إقامة القبور في الهواء الطلق. والحقيقة أننا لا نستطيع مسايرة أحد الباحثين فيما ذهب إليه، حيث يرى أن مغارة غريس التي لها شبيهاتها في أماكن أخرى، مثل مغارة وارزازات الشهيرة، تُشكل مرحلة لاحقة لمرحلة "اكركور" (tumulus)[٢٦]. لأن هذا الرأي يُخالف الكرونولوجيا التاريخية لتطور القبور في المغرب القديم؛ ذلك بأن مرحلة الدفن داخل الكهوف أسبق من القبور التي أقيمت في الهواء الطلق؛ سواء أكانت عبارة عن حفر صغيرة يُسجى فيها الميت على هيئة الجنين في الرحم (القبور الدائرية الشكل) أو من نوع القبور التي يُسجى على طوله أو على جنبه، وتوضع معه أواني من الفخار والحلي أو القبور التلية التي تُسمى بالأمازيغية أكركور[٢٧].

ولا شك أن أهمية هذه الكراكير تكمن في بقائها واستمرارها إلى اليوم، شاهدة على استيطان الإنسان بهذا المجال الواحي منذ الفترة الممهدة للتاريخ، ويمكن للزوار استكشافها، وللباحثين والمهتمين التنقيب فيها، ثم حماية النماذج المتميزة منها قبل أن تتعرض للنهب والسرقة، كما حصل لأهم وأكبر المقابر القديمة بموقع البوية بتافيلالت.

وأمام غياب الأبحاث والتنقيبات الأثرية بالمنطقة، تبقى محاولة التأريخ لكراكير ومدافن غريس دون جدوى، وإن كان شكل معظمها متشابه، بينما تختلف من حيث الحجم. ويظل التساؤل مشروعًا حول طبيعة العلاقة بين مغارة جبل غريس والكراكير، وبقايا قلعة برطقيز.

٤/٢- بقايا قلعة غريس (قلعة برطقيز)[٢٨]:

تقع بقايا قلعة غريس شمال غرب جبل غريس على الضفة اليسرى للوادي، وتبدو من حافة "اسدرم" على الطريق الوطني رقم ١٠ كحصن طبيعي، تحميه حواف من الجنوب والغرب، بينما حُصنت الجهة الشمالية والشرقية بسور، أغلب آثاره المتبقية تظهر على شكل جدران نصف مهدمة تتخللها بعض أبراج المراقبة. ويدل وجود آثار لخندق وأسوار في الجهة الشرقية والجنوبية الشرقية على أهمية موقع هذه القلعة الذي يمكن من خلاله التحكم في المجال المحيط بها، بالنظر لموقعها الاستراتيجي فلا يُستبعد أن يتم استغلالها في فترة تاريخية معينة كمركز مراقبة أو محطة للقوافل التجارية.

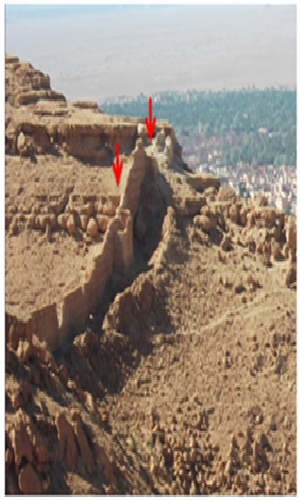

قلعة غريس من موقع أسدرم تبدو كحصن طبيعي يتخلل سورها برجان للمراقبة

وبناءً على زيارة ميدانية للقلعة، يبدو أن السور الشمالي للقلعة أقيم على أنقاض سور بني بقطع حجرية ذات مقاييس موحدة، أساسه من الحجارة، وبني بالطابية (عرضها: حوالي ٢,٢٠ م، وسمكها حوالي ١,١٠ م، وعلوها حوالي ٠,٨٠ مترًا).

أجزاء من بقايا السور الشمالي لقلعة غريس من الداخل والخارج

وعليه، فمتوسط العلو الحالي لسور القلعة يبلغ حوالي خمسة أمتار، وهو بذلك يشبه بقايا بعض أسوار مدينة سجلماسة المندرسة من حيث القياس، ومواد البناء التي تتكون منها الطابية (تربة صلصالية متماسكة ذات لون أحمر- بني ومختلطة بالحصى والقطع الخزفية وأجزاء خشبية، وبقايا عظام حيوانية..).

ومن هنا يمكن أن نتساءل عن المرحلة التاريخية التي تنتمي إليها قلعة غريس، والوظيفة التي كانت تؤديها في منطقة سكتت عنها المصادر التي تحدثت عن سجلماسة ودرعة، ولم ترد بشأنها سوى إشارات قليلة غير مباشرة، عند تحليلها يمكن الوصول إلى فرضيات أكثر علمية، في أفق القيام بدراسات أعمق تجيب عن التساؤلات المطروحة.

وأول إشارة مصدرية تشير إلى منطقة غريس وردت عند المقدسي (ت. ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) في سياق حديثه عن سجلماسة، وهذا نص كلامه: «وأما سجلماسة فهي اسم القصبة أيضًا ولها من المدن درعة، تادنقوست، إثرائيلا، ويلميس، حصن ابن صالح، النّحاسين، حصن السودان، هلال، اِمْصَلى، دار الأمير، حصن برارة، الخيامات، تازروت»[٢٩].

إن موقع أغلب هذه الأماكن «يظل مجهولاً وغامضًا في ضوء معلوماتنا الحالية، ولا نتوفر على ما يُقابل أسماءها بالمناطق المختلفة لإقليم سجلماسة اليوم. وهذا ما يؤكد التغيرات الكبيرة التي لحقت أسماء الأماكن نتيجة التحولات الاجتماعية المهمة التي عرفتها هذه المناطق من القرن العاشر الميلادي إلى الفترة المعاصرة»[٣٠]. والغالب على الظن أنها كانت تابعة لأمراء الخوارج الصفرية، وكلمة "تادنقوست" لا يوجد ما يُشبهها لفظا بإقليم سجلماسة، وبمنطقة غريس على وجه التحديد، سوى كلمة "تاديغوست" التي تقع في القسم الأعلى من حوض غريس، ولا نستطيع مسايرة أحد الباحثين[٣١] الذي ذهب إلى أن المقصود بـــها هي تازة لأنه لم يدعم رأيه بأي دليل.

أما الإشارة المصدرية الثانية التي تذكرنا بمنطقة غريس، فقد أوردها أبو عبيد الله البكري (ت. ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، في كتابه "المسالك والممالك"، حيث يقول في آخر كلامه عن الطريق من مدينة درعة إلى سجلماسة: «وأمرغاد آخر بساتين سجلماسة»[٣٢]. والحقيقة أننا لا نعرف بالتحديد المقصود بكلمة "امرغاد" في نص البكري الذي لم يزر المنطقة وإنما جمع أخباره عنها عن طريق الرواية الشفوية[٣٣]. ومن المحتمل أنها سبقت لفظ "غريس"[٣٤] وكذلك اسم القبيلة "ايت مرغاد" التي لم تتحدث عنها الوثائق المحلية إلا في القرن السابع عشر الميلادي[٣٥]، وعلى حدّ تعبير أحد الباحثين فـ «أمرغاد أو ايت مرغاد قبيلة صغيرة رحل رعاة يعتبرون ضمن تجمع ملوانة... ووطنهم على نهر غريس»[٣٦].

وإذا افترضنا وجود صلة ما بين "امرغاد" و"ايت مرغاد" التي استوطنت أعالي حوض غريس منذ القرن (١١هـ/ ١٧م) على الأقل[٣٧]، نكون أمام دليل آخر يؤكد أن غريس كانت خاضعة للنفوذ السياسي والديني والاقتصادي للحكم المدراري، وبالتالي يُحتمل أن يكون الهدف من بناء قلعة غريس هو مراقبة الطرق التجارية التي تربط سجلماسة بالأطلس، وتمرُّ عبر وادي غريس ومضايق تاحمدونت.

ولعل ما يؤكد ذلك، أن سجلماسة «كانت المكان الذي تتجمع فيه البضائع من كل قطر، والمكان الذي تتم فيه عمليات البيع والشراء على أوسع نطاق»[٣٨] والمجال الذي كان على سجلماسة أن تراقبه باستمرار «كان يتشكل من مرتفعات الأطلس الكبير الشرقي في الشمال حيث تتوفر المنتوجات الحيوانية من لحوم

وجلود وأصواف فضلاً عن المعادن.. وعلى الرغم من أن الحمادات تتسم بانبساط تضاريسها، فإن القوافل التجارية لم تسلكها إلا نادرًا.. [وكانت] تتبع مجاري الأنهار، نتيجة سهولة الرحلة عبرها، لأنها عبارة عن أشرطة متسلسلة من الواحات التي توفر ما تحتاج إليه القوافل من لوازم السفر خاصةً الماء»[٣٩].

كما أن الرواية الشفوية تتحدث - وبسيولة- «عن طريق القوافل الذي يمرُّ تمامًا أسفل القلعة، حيث منها يمُكن أن نلاحظ جميع الجهات، خصوصًا الشمال نحو الجبل والجنوب نحو سجلماسة، وقد استمر هذا الطريق مطروقًا حتى فترة الاستعمار»[٤٠]. ولعل ما يؤكد العمق التاريخي لهذه القلعة وأهمية موقعها وجود مغارة منحوتة بسفح الجبل الذي تقع فيه، تُعرف عند الساكنة المحلية بـ"تادّارت ن ورومي". وكما هو الشأن بالنسبة لقلعة "برطقيز"، فسكان المنطقة غالبًا ما يرجعون أصول المعالم القديمة، وغير المؤرخة بدقة، إلى الرومان أو "برتقيز أي البرتغال".

خَاتِمَةٌ

وخلاصة القول؛ إن التراث الأثري يحيل بمكوناته على العهود ما قبل التاريخية والتاريخية لواحات غريس وفركلة، حيث النقوش الصخرية والقبور القديمة التي ترجع لفترة ما قُبيل التاريخ ومغارة "تادارت ن ورومي" جنوب قلعة غريس – أو قلعة برطقيز- التي تؤكد الارتباط السياسي والاقتصادي، بين واحات غريس وباقي واحات تافيلالت، وكذا بعض الآثار المعمارية التي تذكر بالفترة الذهبية لسجلماسة، هذه العاصمة التي يمكن للزائر أن يعثر على أثر لها عبر مجال إقليمها، فوق الجبال والمرتفعات، وعلى ضفاف الأودية وفي المنخفضات سواء في واحات تافيلالت (تافيلالت الصغرى) أو بواحات غريس وفركلة التي تشكل امتداد لها، ويصعب فهم الكثير من القضايا التاريخية المتعلقة بالمنطقة دون محاولة الجمع بين الإشارات التاريخية الواردة في المصادر الإخبارية وما تُسفر عنه نتائج البحث الأثري الذي نرجو أن تكون هذه الإشارات معينة على انطلاقه في هذه الواحات التي لم تنل نصيبها من الاهتمام لدى الباحثين والمهتمين.

الهَوامِشُ:

(١) ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠١م، ص. ٤٦.

(٢) ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق خليل شحادة، م س، ص. ٥٣.

(3) MARGAT (Jean) et CAMUS (Albert), «La nécropole de Bouïa au Tafilalt», **Bulletin d'Archéologie Marocaine**, Tome. 3, 1958-1959, p: 63-74.

(٤) يوسف بوكبوط، «تحريات أثرية في منطقة تافيلالت»، ضمن أعمال **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**، الدورة الأولى ١٩٨٩، مطابع ميثاق المغرب، الرباط، ١٩٩٠، ص. ٣٩٣ – ٤٠١.

(٥) **الخريطة الطبوغرافية لكلميمة**، مقياس: 1/250.000.

(٦) ابن منظور، **لسان العرب**، طبعة جديدة محققة ومشكولة، دار المعارف، القاهرة، د ت، ج ٥، ص. ٣٢٤٠.

(٧) الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط ٨، ٢٠٠٥م، ص. ٥٦١.

(٨) مسعود جبران، **الرائد معجم لغوي عصري**، مادة "الغريس"، دار العلم للملايين، ط ٧، ١٩٩٢م، ص. ٥٧٨.

(٩) البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، ١٩٧١م، ص. ٥١.

(١٠) البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت**، م س، ص. ٥١ (الهامش رقم: ٩٦).

(١١) يرى أحد الباحث أن «النون المستقلة تعني النسبة إلى الاسم الذي يليها في الأمازيغية، وبالتالي يُستحسن عدم دمجها ليسهل تمييز الاسم كما في مثال: تيزي ن تافيلالت». محمد بوكبوط، **ايت عطا الصحراء وتهدئة آفْلاَ – نْ – دْرَا، تأليف القبطان جورج سبيلمان**، (ترجمة وتعليق)، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الترجمة رقم: ١٠، مطبعة المعارف الجديدة، ٢٠٠٧، الهامش ٣، ص. ١٤.

(١٢) محمد بوكبوط، فركلة، **معلمة المغرب**، مطابع سلا، ٢٠٠٤، ج.١٩، ص. ٦٤٥٣ - ٦٤٥٤.

(١٣) مصطفى أعشي، وعفراء الخطيب، وألان رودريك، **نقوش صخرية من إقليم السمارة**، منشورات مركز الدراسات الإفريقية، الرباط، ٢٠٠٨، ص. ١٦.

(١٤) أعشي وآخرون، **نقوش صخرية**، م س، ص. ١٦.

(١٥) عبد الحميد العوني، **تافيلالت – سجلماسة قبل ٤٠٠٠ سنة: أقدم مملكة في شمال غرب إفريقيا (١٣٧٨ق.م)**، منشورات عربية رقم ٢٩، فاس، ٢٠٠٩، ص٢.

(١٦) انظر على سبيل المثال لا الحصر:

- De la Chapelle (François), "L'expédition de Suetonius Paulinus dans le Sud-Est du Maroc", **Hespéris**, Tome: XIX, Fascicules I-II, 1934, pp: 107-124, p: 108.

(١٧) لحسن تاوشيخت، **عمران سجلماسة: دراسة تاريخية وأثرية**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٨، ج ١، ص. ٧٨.

(١٨) محمد مقدون وعلي واحدي، «سويتونيوس باولينوس والحرب الموريطانية الثانية بمنطقة تافيلالت»، ضمن أعمال **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**، الدورة الأولى ١٩٨٩، مطابع ميثاق المغرب، الرباط، ١٩٩٠، ص. ٣٦٩ – ٣٧٨، ص. ٣٧٨.

(١٩) ماك كوك، **الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة**، تعريب وتعليق محمد الحمداوي، دار الثقافة، مطبعة النجاح الجديدة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص. ٦٢- ٦٣.

(٢٠) عبد العزيز بلفايدة والبيضاوية بلكامل، «الجنوب المغربي في عصوره القديمة من خلال المصادر الاغريقية الرومانية»، ضمن أعمال **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**، الدورة الأولى ١٩٨٩، مطابع ميثاق المغرب، الرباط، ١٩٩٠، صص. ٣٤٣ – ٣٦٨، ص. ٣٤٤.

(٢١) جوليان شارل أندري، **تاريخ إفريقيا الشمالية: تونس، الجزائر، المغرب الأقصى. من البدء إلى الفتح الإسلامي ٦٤٧م**، تعريب محمد مزالي والبشير سلامة، مؤسسة تاوالت الثقافية، ٢٠١١، ص. ٥٦ - ٥٧.

(٢٢) تاوشيخت، **عمران سجلماسة**، م س، ج ١، ص. ١٨٢ (الهامش رقم: ٧)،

(٢٣) مصطفى أعشي، القبور في المغرب القديم، **معلمة المغرب**، مطابع سلا، ٢٠٠٤، ج ١٩، ص. ٦٦٠٢.

(٢٤) محمد بيومي مهران، **المغرب القديم**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص. ٣٦.

(٢٥) يرى الباحث يوسف بوكبوط أن وجود الكراكير قرب الوادي والمناطق المسقية دليل على ممارسة الزراعة منذ ما قبل التاريخ. انظر:

- BOKBOT (Youssef), "Nouvelles recherches en archéologie protohistorique du Maroc", document de synthèse de l'activité scientifique pour la thèse d'habilitation à diriger des recherches, Université PAUL VALÉRY, Avril 2012 , p: 209.

(٢٦) بن محمد قسطاني، **الواحات المغربية قبل الاستعمار: غريس نموذجًا**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الدراسات والأطروحات رقم ٣، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٥م، ص. ٥١.

(٢٧) أعشي، **القبور في المغرب القديم**، م س، ج ١٩، ص. ٦٦٠٢.

(٢٨) تُعرف بهذا الاسم لأن البناية قديمة وغير مؤرخة بدقة. وكما هو الشأن في بعض حواضر المغرب القديمة، فسكان المنطقة غالبًا ما يرجعون أصول المعالم القديمة، وخاصةً غير المؤرخة بدقة، إلى الرومان أو "برتقيز أي البرتغال".

راجع: تاوشيخت، **عمران سجلماسة**، م س، ج ١، ص. ٨٠ (الهامش رقم: ١٢٥).

(٢٩) المقدسي، **رحلة المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، حررها وقدم لها شاكر لعيبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي- المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣، ص٧٩.

(٣٠) حسن حافظي علوي، **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي**، مطبعة فضالة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المحمدية، ١٩٩٧، ص٣٣.

(٣١) شاكر لعيبي في "رحلة المقدسي". راجع: **أحسن التقاسيم**، ص. ٢٠٩ (الهامش رقم: ٦٠٢).

(٣٢) البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، طبعة دار الكتاب الإسلامي، الجزائر، ١٨٥٧، ص. ١٥٦.

(٣٣) حافظي، **سجلماسة وإقليمها**، م س، ص. ٢٩.

(٣٤) ورد ذكر اسم "غريس" عند البيذق في سياق حديثه عن خروج المهدي بن تومرت من تنمل نحو سجلماسة. راجع: البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت**، م س، ص. ٥١.

(٣٥) الوثيقة التي أشارت إلى قبيلة أيت مرغاد مؤرخة بسنة ١٠٥٥هـ/ ١٦٤٥م، انظر:

-MEZZINE (Larbi), **Le Tafilalt: Contribution à l'histoire du Maroc aux XVIIe et XVIIIe siècles**, Publications de la FLSH (Faculté des lettres et des Sciences Humaines), Rabat, 1987, p: 94.

(٣٦) هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري/ منتصف القرن العاشر الميلادي**، ج ٢، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٥، ص. ٢٠٩ (الهامش رقم: ٢١٢م).

(٣٧) مولاي الحسن اخروش، **المجتمع القبلي ودور الزوايا بالحوض الأعلى والأوسط لوادي غريس: من القرن ٨هـ/١٤م إلى القرن ١٣هـ/١٩م**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز- فاس، ٢٠٠٢- ٢٠٠٣م (مرقونة)، ص. ٤٤.

(٣٨) ماجدة كريمي، **آثار التجارة الصحراوية على المغرب سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا: من القرن ٥هـ/١١م إلى القرن ١١هـ/١٤م**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، ١٤١٥- ١٤١٦هـ/ ١٩٩٤- ١٩٩٥م (مرقونة)، ص. ٧٤.

(٣٩) حافظي، **سجلماسة وإقليمها**، م س، ص. ٣١ - ٣٧.

(٤٠) قسطاني، **الواحات المغربية قبل الاستعمار**، م س، ص. ٥٦.